بسم الله الرحمن الرحيم

المشاركة في الندوة التكوينية عنوانها:

المكون البلاغي في العمل التفسيري –قراءة في أمات التفسير-

تاريخها:

- بمخبر الدراسات اللغوية والقرآنية بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية–قسنطينة (الجزائر)

المداخلة وعنوانها:

المناسبة بين البلاغيين والمفسرين.

The occasion between rhetoricians and interpreters

د.اليزيد بلعمش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة.

البريد الإلكتروني: el-yazid@hotmail.com

البريد المهني: y.belameche@univ-emir.dz

الملخص: معلوم أن موضوع اشتغال البحث البلاغي إنما هو المعنى المقصود والمراد إبلاغه للمخاطب والحقيقة أن هذا هو الهدف المقصود من التواصل اللغوي، ولهذا اشترك علم التفسير مع البلاغة في هذا الهدف وهذه الغاية، فالمفسر يسعى إلى البحث عن المقصود من الآية، والمراد منها. ولهذا كان من الطبيعي جدا أن تكون البلاغة إحدى الأدوات التي يتوسل بها المفسر في عملية التفسير، وكانت مباحث البلاغة له زادا في عمله.

وهنا يبرز سؤال وجيه: يستوجب علينا البحث فيه مفاده: هل كان توظيف الأدوات البلاغية عند المفسرين كما هي عند البلاغيين؟! ولمعرفة هذا، لا بأس أن نأخذ على ذلك مثالا: المناسبة. لملاحظة الفروق المنهجية بين التوظيف البلاغي لها والتوظيف التفسيري.

الكلمات المفتاحية: المناسبة؛ التفسير؛ البلاغة العربية، القرآن الكريم.

Summary:

It is known that the subject of the work of rhetorical research is the intended meaning and intended to be communicated to the addressee and the fact that this is the intended goal of linguistic communication, and for this reason the science of interpretation with rhetoric in this goal and this end, the interpreter seeks to search for the intended verse, and what is intended. Therefore, it was very natural that rhetoric was one of the tools that the interpreter invoked in the process of interpretation, and the investigations of rhetoric for him increased in his work.

Here arises a good question: we must research it: Was the employment of rhetorical tools when the interpreters as they are when the rhetoricians?! To find out, it's okay to take an example: the occasion. To note the methodological differences between its rhetorical and interpretive employment.

المداخلة:

1- مقدمة:

نعلم جميعا أن العلوم العربية جميعا كانت انطلاقتها دينية أو بدافع ديني؛ أي لخدمة الدين الإسلامي، فظهر أول الأمر العناية بشرح ألفاظ من القرآن الكريم أو من السنة النبوية لإدراك المقصود منها، ثم تطور الأمر إلى العناية باللغة وتعلمها لفهم الشرائع والعبادات التي أمر بها المرء، وفي كل ذلك كان العلماء يسعون جاهدين إلى تذليل السبل، وتقريب الأمر من مريديه بوضع علوم، تسهل وتيسر على أصحاب الحاجات حاجاتهم وإدراك مقصودهم في ذلك، فاتسع دائرة حاجات المريدين واتسعت معها العلوم التي وضعها العلماء لأجل ذلك، فكان في ذلك علوم تتعلق بالقرآن الكريم: كعلم التفسير وعلم الغريب وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم أسباب النزول، علم المكي والمدني ... وغيرها من العلوم التي ترجع إلى خدمة جانب من جوانب القرآن الكريم.

كان منها علوم تتعلق بالحديث وغريبه وإسناده ودرايته وفقهه ... وكان منها علوم بالأحكام الشرعية من جهة فقهها وأحوالها وشروطها وقيودها وضوابطها وقواعدها وأصولها التي تنطلق منها ... وعلوم أخرى تتعلق باللغة سواء من جهة متنها أو أبنيتها ونحوها وأساليبها وطرقها في توصيل المعنى أو بلاغتها ... غير ذلك.

وكان من الطبيعي جدا أن يكون بين العلوم نوعا من التداخل والامتزاج، أولا بحكم النشأة المشتركة في البيئة الزمانية والمكانية وثانيا بحكم المقصد المشترك هو فهم رسالة رب العالمين إلى خلقه. ومن العلوم التي كان بينها تداخل وتمازج واشتراك في بعض المفاهيم واتفاق في الغاية والمقصد، هما علم التفسير وعلم البلاغة، فكان الثاني منهما الأداة الكبرى في إدراك هذا العلم وتفعيله، حتى قال بعضهم: "علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، ... إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة اللَّه، وحرص على استيضاح معجزة رسول اللَّه بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ" [1].

[1] أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ (ج1/ص02) من المقدمة.

ولهذا فلا غرابة أن نجد أن بلاغة العربية تشترك مع علم التفسير في كثير من المباحث بينهما، وإن من المباحث التي لفتت نظري، وقد درست في التفسير والبلاغة؛ هي المناسبة.

هذا يجعلنا نتساءل عن النمط الذي درست به عند المفسرين في مقابل دراستها عند البلاغيين، وقبل ذلك ما مفهومها عند المفسرين في مقابل مفهومها عند البلاغيين؟! وبعبارة أخرى: هل تطابقت دراسة المناسبة بين البلاغيين والمفسرين أم كان بينهما نوع تباين؟! وما هو إن كان؟!

هذا ما سنحاول أن دراسته في هذه الأوراق وفق منهج وصفي يعتمد الملاحظة والتتبع ويليها في مرحلة تالية تحليل لتلك الملاحظات.

2-المناسبة في اللغة العربية:

نحاول هنا نتلمس مدلول المناسبة في اللغة العربية عامة، وهذا إنما يتأتى لنا من خلال النظر في المدلول اللغوي الذي كان يدل عليه لفظ (المناسبة) مع اشتقاقاته أخرى.

المناسبة من الناحية الصرفية اسم مشتق من الفعل المزيد (نَاسَبَ) ومجرده (نَسَبَ) وهذا الجذر اللغوي يدور في كلام العرب على معنى واحد، هو: اتصال الشيء بالشيء، وارتباطه به، يقول ابن فارس: "النُّونُ وَالسِّينُ وَالْبَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ قِيَاسُهَا اتِّصَالُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ"[1]. ولهذا نجد أن من اشتقاقات هذه الكلمة:

- النَسَبُ: نَسَب الْقرَابَات، والنِّسْبة مصدَرُ الانتساب، والنُّسبَةُ: الِاسْم [2]. ويقولون: انتسب إلى أبيه، أي اعتزى. وتنسب، أي ادعى أنَّه نسيبُك [3]. ولهذا فالانتساب هو تربط نفسك بأصلك؛ آبائك وأجدادك.

- وفلان يناسب فلاناً فهو نسيبُه، أي قريبه. وتقول: ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة [4]. أي ليس بينهما ما يربط بينهما، المشابهة والمشاكلة هي نوع من أنواع الارتباط بين الشخصين.

- ويطلق النسيب على ما كان من شعر في النساء والتغزل بهن [5]. وكأنه بذلك يطلب وصالهن، يقول الزبيدي: "يُطْلَقُ النَّسيبُ على وصْف مَرابع الأَحباب ومنازلهم، واشتياقِ المُحِبّ إِلَى لقائهم ووِصالهم، وَغير ذالك ممّا فصّلوه"[6].

---

[1] أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م. (ج5، ص423).

[2] محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م. (ج13، ص12).

[3] محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م. (ج13، ص12).

[4] المرجع نفسه وصفحة نفسها.

[5] المرجع نفسه وصفحة نفسها.

[6] محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية (ج2، ص264).

- ويطلق أيضا على الطريق المستقيم، "قَالَ اللَّيْث: هُوَ الطَّرِيق المُستَدِقّ الواضحُ كطريق النَّمْل والحَيَّة، وطريقِ حُمُر الوَحْش إِلَى موارِدِها"[1]، وهذا لاتصاله بعضه ببعض، ولمجيء تلك الحيوان في إثر بعضها ببعض.

فالمعاني التي أشارت إليها المعاجم في باب (نسب) كلها تدل على الارتباط والاتصال على ما أشار إليه ابن فارس في معنى الجذر. وهذا الارتباط بين الشيئين إنما يحدث لوجود نوع من العلاقة الجمعة بينهما، ولهذا نجد أبا البقاء الكفوي (1094ه) يحدد أوجه هذه العلاقات في التراكيب اللغوية عندما يقول: "الْمُنَاسبَة: هِيَ على ضَرْبَيْنِ مُنَاسبَة فِي الْمعَانِي، ومناسبة فِي الْأَلْفَاظ"[2]، فقد حدد أوجه الارتباط اللغوية، ومدار هذه الأوجه على قسمين: معنوية ولفظية، وبعدها شرع في توضيح هذه الأوجه قائلا: "فالمعنوية: هِيَ أَن يَبْتَدِئ الْمُتَكَلّم بِمَعْنى ثمَّ يتم كَلَامه بِمَا يُنَاسِبه معنى دون لَفظه، فَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَو لم يهد لَهُم كم أهلكنا من قبلهم ﴾ إِلَى قَوْله: ﴿ أَفلا يسمعُونَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ أولم يرَوا أَنا نسوق المَاء إِلَى الأَرْض الجرز ﴾إِلَى قَوْله:﴿ أَفلا يبصرون ﴾لِأَن موعظة الْآيَة الأولى سمعية، وموعظة الْآيَة الثَّانِيَة مرئية"[3]، هذا فيما يخص الارتباط المعنوي أو المناسبة المعنوية، أما بالنسبة للمناسبة اللفظية، وهي الارتباط اللفظي في حسب قوله: "هِيَ دون رُتْبَة المعنوية فَهِيَ الْإِتْيَان بِكَلِمَات، وَهِي على ضَرْبَيْنِ: تَامَّة وَغير تَامَّة، فالتامة أَن تكون الْكَلِمَات مَعَ الاتزان مقفاة، والناقصة موزونة غير مقفاة. فَمن التَّامَّة قَوْله تَعَالَى:﴿ مَا أَنْت بِنِعْمَة رَبك بمجنون، وَإِن لَك لأجرا غير ممنون ﴾، وَمن شَوَاهِد النَّاقِصَة قَوْله عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام: «أُعِيذكُمَا بِكَلِمَات الله التَّامَّة، من كل شَيْطَان وَهَامة، وَمن كل عين لَامة»، لم يقل النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام (ملمة) وَهِي الْقيَاس لمَكَان الْمُنَاسبَة اللفظية"[4]، بهذا تتحدد لنا وجوه الارتباط اللغوي في التراكيب، أو بعبارة تحدد لنا معنى المناسبة في تراكيب اللغة العربية.

3- المناسبة عند البلاغيين:

إن تتبع مفهوم المناسبة عند البلاغيين يظهر لنا أنها على ضربين أو نوعين؛ مفهوم منها مصرح به، مفهوم غير مصرح به.

أ-المفهوم المصرح به: وهو أن جعلت نوعا من أنواع المحسنات البديعية، وقد تحدث عن ذلك ابن حجة الحموي (837ه) في خزانته [5]، ولم يزد عما ذكره أبو البقاء الكفوي (1094ه) إلا من

---

[1] محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370ه)، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، (ج13، ص12).

[2] أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094ه)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المحقق: عدنان درويش -محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت (ص866).

[3] المرجع نفسه وصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه وصفحة نفسها.

[5] تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: كوكب دياب، الناشر: دار صابر-بيروت، الطبعة 02، 2010م، (ج2/ص458).

حيث التمثيل لها بأمثلة أخرى من الشعر خاصة، ومن الأمثلة التي نقلها للاستشهاد بها على ذلك، قول ابن أبي رشيق القيرواني (463هـ):

أصـــح وأقـــوى ما رويناه في النـــدا ... من الخـــبر المأثـــور منذ قديـــم

أحـــاديث ترويها السيول عن الحـيا ... عن البحـــر عن جـــود الأمير تميم.

وقد حسنت المناسبة هنا من جهة أنه: "ناسب في البيت الأول بين (الصحة والقوة والرواية والخبر المأثور) وناسب في البيت الثاني بين (الأحاديث والرواية والعنعنة) هذا مع صحة (ترتيب العنعنة) من حيث أنها جاءت (صاغرا عن كابر، وآخرا عن أول) كما يقع في سند الأحاديث لأن: السيول فرعٌ، الحيا أصلُه، وكذلك الحيا فرعٌ، البحر أصله، ثم نزل البحر منزلة الفرع، و(جود الممدوح) منزلة الأصل للمبالغة في المدح، وهذا غاية الغايات في هذا الباب"[1]. هذا ما ذكره في المناسبة المعنوية.

أما بالنسبة للمناسبة اللفظية فقد استشهد لها بقول أبي تمام (231هـ):

مها الوحش إلا أنّ هاكَ أوانـس ... قنا الخطّ إلا أنّ تيك ذوابل

والمناسبة اللفظية هنا جاءت بين "بين (مها وقنا) مناسبة تامة وبين (الوحش والخط وأوانس وذوابل) مناسبة غير تامة، قال زكي الدين بن أبي الأصبع هذا البيت من أفضل بيوت المناسبة، لما انضم إليه فيها من المحاسن فإنّ فيه مع المناسبتين التشبيه بغير أداة ..." [2].

وهو في كل ما ذكره لم يخرج عن سابقيه فيما ذهبوا إليه: كابن سنان الخفاجي الحلبي (466هـ)[3]، وابن أبي الإصبع العدواني(654هـ) [4] ... وغيرهما من البلاغيين.

وما يلحظ على تناول البلاغيين للمناسبة أنها قاصرة على مستوى الألفاظ فقط، ولهذا فهم في تمثيلاتهم واستشهاداهم لم يخرجوا عن التمثيل بالبيت والبيتين والآية والآتين، بل وقد صرح بذلك ابن سنان الخفاجي(466هـ) فنجده يقول: "ومن شروط الفصاحة: المناسبة بين الألفاظ وهي على ضربين: مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة. ومناسبة بينهما من طريق المعنى"[5]، فقد ذكر صراحة أن محيط المناسبة إنما هو بين الألفاظ، مثلما مرّ معنا في الأمثلة السابقة: بين (الصحة والقوة والرواية والخبر المأثور)، وبين (الأحاديث والرواية والعنعنة)، ... وغيرها.

---

[1] المرجع نفسه (ج02/ص459، 460).

[2] المرجع نفسه (ج02/ص463، 464).

[3] ينظر: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: 466هـ)، سر الفصاحة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى، 1402هـ_1982م (169 وما بعدها).

[4] ينظر: عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: 654هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة -المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -لجنة إحياء التراث الإسلامي، دط، دت، (ص363 وما بعدها)

[5] ينظر: ابن سنان الخفاجي الحلبي (المتوفى: 466هـ)، سر الفصاحة، (ص169).

ب- **المفهوم غير المصرح**: نعني بالمفهوم غير المصرح به، هو أن يكون حديث البلاغيين عن المناسبة، لكن تحت باب من أبواب البلاغة الأخرى مضمنا فيها، أو أن يكون حديثهم عنها لكن باسم آخر غير اسم المناسبة.

وهذا النوع من المفهوم متكاثر في البلاغة العربية جدا، ونجده في كثير من أبوابها ومباحثها، لأن البلاغة العربية إنما بنيت على تتبع مواطن المناسبة وكشفها، يقول أحمد الشايب: "وخلاصة هذا الفصل: أن هنا مسألتين يجب أن تتوافرا في الكلام البليغ هما **الصحة والمناسبة**. فالأولى من وحي المنطق والنحو، **والثانية** هي الميزة التي يختص بها الفن الجميل ... ، وإنّ كُلًّا من النحو والمنطق علم مستقل لا يدخل في صميم البلاغة ولكنه يمهد لها، ويسبقها إلى تحقيق الصحة في العبارة والفكرة، وبعد ذلك **تتقدم البلاغة لتوفير المناسبة أو المطابقة التي هي وظيفة الفن البلاغي الأصيل**"[1].ومن أمثلة ذلك:

1- تعريف علم المعاني: فقد عرف بأنه: "علم يُعرَف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال"[2]، هذا التعريف يوضح لنا بجلاء موضوع علم المعاني وقد جعل موضوعه منصبا على بحث الأحوال التي بها يطابق الكلام المقام، ومعنى يطابقه؛ مناسبة التراكيب وخصائصها لمقام كلام حتى يكون المعنى على قدر ذلك المقام، لأن المقامات فيما بينها تختلف، وهي "متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافة، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، مقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي"[3]. ومن هنا كانت وجوه التي يناسب بها الكلام مقام مختلفة ومتنوعة.

وعلى جاءت مباحث هذا العلم لتبحث في الوجه الذي يناسب به الكلام مقام، فالأساليب الخبرية والإنشائية لها وجوه لمتنوعة للمناسبة، والخصائص المتنوعة التي تصيب التركيب من حذف وذكر وتقديم وتأخير هي وجوه من وجوه المناسبة بين التركيب ومقامه، باب الفص والوصل قائم أساسا على تتبع المناسبة ودراستها ... وهكذا، فمباحث هذا العلم هي تدريب للطالب على كيفية فهم وجه المناسبة بين التركيب ومقامه.

2- لم تتوقف الإشارة إلى المناسبة عند هذا الحد في هذا الفن عند البلاغيين، بل نجد لها حضورا قويا في مباحث علم البيان، فالتشبيه يشترط أن يكون بين طرفيه مناسبة حتى يصح ذلك التشبيه، وفي فصل الحقيقة والمجاز يشترط أن يكون بين معنييه مناسبة تسوغ الانتقال[4]، وفي الاستعارة

---

[1] أحمد الشايب، الأسلوب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة، 2003 (ص29)

[2] جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، المعروف بالخطيب القزويني (المتوفى: 739هـ)، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904 (ص37).

[3] المرجع نفسه (ص34).

[4] ينظر: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، دط، دت (ص251)

نجد عند ذكر الجامع وهو: ما اشترك فيه الطرفان؛ المستعار والمستعار له، على هذا فهو المناسبة الحاصلة بينهما[1]، يقول القاضي الجرجاني: "وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة، وطرف من الشبه والمقاربة"[2].

وكذلك في الكناية تشترط قوة المناسبة بين الكناية والمكنى عنه [3].

3-أما الفن الثالث من فنون البلاغة فالمناسبة حاضرة فيه بأقوى من الفنين السابقين، فهناك أنواع منه إنما هي مناسبة خاصة أعطيت اسما خاصا، بل لا نبتعد عن الصواب إن قلنا إن علم البديع في البلاغة العربية، إنما هو تتبع للمناسبات اللفظية والمعنوية، فمن المناسبات اللفظية: السجع، والازدواج، والجناس بأنواعه المختلفة، والتصدير، ومراعاة النظير، والترديد، والتكرار، والتصريع .... وغيرها. ومن المناسبات المعنوية: حسن الابتداء والاستهلال، وحسن التخلص، الاستطراد، والطباق والمقابلة، والإغراق، والائتلاف، والإيغال، والمشاكلة، ... وغيرها.

والخلاصة أن البلاغيين قد تناولوا المناسبة ووجوهها المتعددة، بل وعملهم إنما كان دائرا على المناسبة، لكن بحثهم عن هذه المناسبة ، إنما كان في حدود ضيقة من التركيب، فلم يتجاوزوا حدود الجملة إلا إلى الجملة أو الثلاث، فلم يخرج تمثيلهم وتطبيقاتهم عن هذه الحدود، ربما أن الأمر الذي دفعهم إلى ذلك هو عنايتهم بالتنظير دون مباشرتهم للتطبيق، إذ لو خرج عملهم إلى التطبيق لتعاملوا من النصوص عندئذ ستفرض عليهم تلك النصوص البحث عن المناسبة في مساحة النص بكامله.

4- المناسبة عند المفسرين:

إن أول ما يلفت النظر عن تناول المفسرين للمناسبة، أن جعلت علما مفردا من علوم القرآن الكريم[4]، فهي علم يوازي علم التفسير وعلم الغريب وعلم المكي والمدني ... وغيرها من العلوم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنما تجاوزه إلى خص هذا الفن بالتصنيف والتأليف، ومن الكتب التي كتبت في هذا السياق:

---

[1] ينظر: أبو الفتح، ضياء الدين نصر الله بن محمد ، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر:1420 هـ (ج1، ص356).

[2] أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: 392هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دط، دت (ص429).

[3] ينظر: بابن الأثير الكاتب (المتوفى: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد (ج2، ص188).

[4] ينظر: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376هـ - 1957م (ج1، ص35).
وينظر أيضا: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م (ج3، ص369).

1- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (المتوفى: 708هـ) رحمه الله : ألف "كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن"، وهو كتاب ثمين.

2- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) رحمه الله: ألف كتابه: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، وكتابه مؤلف مستقل لتلمس المناسبات بين الآيات والسور وهو كتاب نفيس في بابه.

3- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي (المتوفى911هـ)، رحمه الله فقد ألف ثلاثة كتب وهي: "قطف الأزهار في أسرار التنزيل" (ولم يتمه)، والثاني: "تناسق الدرر في تناسب السور" ويسمى أيضا بـ"أسرار ترتيب القرآن"، والثالث: "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"، وهي كتب نافعة جليلة في بابها.

هذا بالإضافة إلى الكتب أخرى من المتقدمين أو من المتأخرين أو كتب أخرى خصصت لهذا الفن فصلا خاصا به عند حديثها عن موضوعات شتى في القرآن الكريم، لكن هذه التي ذكرتها أبرزها في هذا الموضوع [1].

كما كانت المناسبة موضع عناية خاصة في كتب التفسير، من أبرز التفاسير التي أولت هذا الفن عناية فائقة:

1-تفسير "مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير": لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، الملقب: بفخر الدين الرازي (المتوفى: 606هـ)

2-تفسير: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم": أبي السعود العمادي محمد بن محمد (المتوفى: 982هـ)

3-تفسير: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني": لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ). ... وغيرها من التفاسير.

بل وقد أقر المفسرون أن هذا العلم علم الخواص من أصحاب التفسير، ولهذا لا يستطيعه عامة من تصدى لهذا الفن إلا من كانت له فطنة ومكنة في العلوم المختلفة، يقول الزركشي(ت794هـ): "وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته"[2]، ثم أضاف بعدها قائلا: "وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه

---

[1] لمعرفة تاريخ التأليف في هذا العلم وظهوره وأهم المؤلفات فيه قديما وحديثا، يراجع في ذلك: أحمد أبو زيد، التناسب في القرآن الكريم –دراسةفي النظم المعنوي والصوتي-منشورات كلية الآداب بالرباط، طبع: 1992 (ص27 وما بعدها).

[2] أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ج1، ص36).

فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"[1].

أما عن المباحث التي تدرس في هذا الفن، فقد أشار إليها جلال الدين السيوطي (ت911ه) في مقدمة كتابه "تناسق الدرر في تناسب السور" ويعرف باسم "أسرار ترتيب القرآن"، عندما أراد أن يبين سبب تأليفه لهذا الكتاب، فقال: "وقد أردت أن أفرد جزءًا لطيفًا في نوع خاص من هذه الأنواع؛ هو مناسبات ترتيب السور؛ ليكون عجالة لمريده، وبغية لمستفيده"[2]، فبين رحمه الله أنه خصص هذا الكتاب لبيان (أسرار ترتيب السور) أما باقي المسائل المناسبة فبين أنه قد تناولها في كتاب سابق له، وهو "قطف الأزهار في أسرار التنزيل" ونص على أنه : اشتمل على بضعة عشر نوعًا[3]:

الأول: بيان مناسبات ترتيب سوره، وحكمة وضع كل سورة منها.

الثاني: بيان أن كل سورة شارحة لما أُجْمِلَ في السورة التي قبلها.

الثالث: وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها.

الرابع: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الخامس: مناسبة أوائل السور لأواخرها.

السادس: مناسبات ترتيب آياته، واعتلاق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

السابع: بيان أساليبه في البلاغة، وتنويع خطاباته وسياقاته.

الثامن: بيان فواصل الآي، ومناسبتها للآي التي ختمت بها.

التاسع: مناسبة أسماء السور لها.

العاشر: الألفاظ التي ظاهرها الترادف وبينهما فرق دقيق.

الحادي عشر: بيان وجه اختيار مرادفاته ولِمَ عُبِّرَ به دون سائر المرادفات.

الثاني عشر: بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات في القصص وغيرها؛ بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وإبدال لفظة مكان أخرى، ونحو ذلك.

ويمكن من خلال التَّأمل في هذه المباحث التي ذكرها السيوطي (ت911ه) أن نعيد صياغتها في شكل محاور تمثل مباحث دراسة المناسبة عند المفسرين، وهي:

1- المحور الأول: المناسبة في السورة الواحدة، ويضم:

- مناسبة اسم السورة لها.

---

[1] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[2] السيوطي (ت911ه)، تناسق الدرر في تناسب السور، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية-بيروت، ط1، 1406ه (ص54).

[3] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911ه)، أسرار ترتيب القرآن، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، دط، دت (ص38، 39).

- مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.
- مناسبة أوائل السور لأواخرها.
- مناسبة ترتيب آياتها واعتلاق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها.
- بيان فواصل الآي، ومناسبتها للآي التي ختمت بها.

2- المحور الثاني: المناسبة بين السورتين، ويضم :
- بيان أن كل سورة شارحة لما أُجْمِلَ في السورة التي قبلها.
- بيان مناسبات ترتيب السور، وحكمة وضع كل سورة من أختها.
- وجه اعتلاق فاتحة كل سورة بخاتمة التي قبلها.

3- المحور الثالث: المناسبة في القرآن كله، ويضم:
- بيان المناسبة في أساليبه في البلاغة، وفي تنويع خطاباته وسياقاته.
- بيان وجه اختيار مرادفاته ولِمَ عُبِّرَ به دون سائر المرادفات.
- بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات في القصص وغيرها؛ بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وإبدال لفظة مكان أخرى، ونحو ذلك.

وللإشارة فإنه يمكن لنا أن نضيف إلى هذه المحاور مباحث أخرى، إذا نظرنا إلى غير السيوطي، ولكن أكتفينا به مثالا عن غيره. وعلى الرغم من الاقتصار عليه، فإنه يظهر لنا أن المفسرين قد تناولوا المناسبة بأبعاد تستوعب الأجزاء (التراكيب وسياقها) كما أنه تستوعب النظرة الكلية (أي النص وسياقه)، وهذه النظرة الكلية لم تشمل دراسة المناسبة في ضوء النص وسياقه اللغوي، بل بين النص وسياقه الخارجي، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين المفسرين والبلاغيين في تناول المناسبة.

ففي الوقت الذي اكتفى فيه البلاغيون بحدود التركيب الجزئي الذي ينحصر غالبا في الجملتين والثلاث، نجد أن المفسرين كانت رؤيتهم في ذلك أوسع وأشمل، إذ تعدت حدود الجملة إلى السورة، وحدود السورة إلى النظر إلى القرآن الكريم كله، كالنص الواحد في ترابط أجزئه واتساقها وانسجامها.

خاتمة:

وفي خاتمة هذه الورقة تتجلى لنا هذه النتائج:

- المناسبة من العلوم التي كان لها حضور قوي في المنظومة المعرفية العربية، بل لقد تأسس عليها علم البلاغة العربية.

- اعتنى البلاغيون بالمناسبة، لكن عنايتهم لها كانت مرتبطة بما لا يخرج عن حدود التركيب الضيق ذي الجملتين أو الثلاث على الأكثر، وهذا لأن قصدهم إنما هو التوجه إلى الجانب التنظيري والتقعيدي.

- لقد تجاوزت عناية المفسرين بالمناسبة عناية البلاغيين حدود التركيب الضيق إلى النظر إلى القرآن كله كالنص الواحد أو التركيب الواحد، هذا بفعل عنايتهم بالجانب التطبيقي وتجاوزهم الوقوف عند الجانب التنظيري.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله) (المتوفى: 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ

- ابن فارس(أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين) (المتوفى: 395هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.

- الأزهري (محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور) (المتوفى: 370هـ)، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م.

- المرتضى الزَّبيدي (محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض) (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، دط، دت.

- أبو البقاء الكفوي (أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي) (المتوفى: 1094هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المحقق: عدنان درويش -محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت

- أبو بكر الحموي(تقي الدين علي بن عبد الله الحموي الأزراري) خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: كوكب دياب، الناشر: دار صابر- بيروت، الطبعة 02، 2010م،

- ابن سنان الخفاجي الحلبي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد) (المتوفى: 466هـ)، سر الفصاحة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الطبعة الأولى، 1402هـ_1982م.

- ابن أبي الإصبع العدواني (عبد العظيم بن الواحد بن ظافر البغدادي ثم المصري) (المتوفى: 654هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة -المجلس الأعلى للشئون الإسلامية -لجنة إحياء التراث الإسلامي، دط، دت.

- أحمد الشايب، الأسلوب، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة، 2003 .

- الخطيب القزويني (جلال الدين محمد بن عبد الرحمن) (المتوفى: 739هـ)، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط1، 1904 .

- أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ)، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، دط، دت .

- المعروف بابن الأثير الكاتب (أبو الفتح، ضياء الدين نصر الله بن محمد) (المتوفى: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر:1420 هـ

- القاضي الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) (المتوفى: 392هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دط، دت.

- الزركشي (أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر) (المتوفى: 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، 1376هـ - 1957م.

- السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين) (المتوفى: 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974م .

- أحمد أبو زيد، التناسب في القرآن الكريم –دراسةفي النظم المعنوي والصوتي-منشورات كلية الآداب بالرباط، طبع: 1992.